

ومن الزيوت الشديدة المستقطرة من القطنان التولوين يستخرج منه مسحوق حلاوته ثلاث
مئة ضعف السكر يسمى السكرين وهو يفضل السكر العادي من وجوه كثيرة فان السكر
العادي كثيراً ما يحدث مغطاً في الاطفال الذين يرضعون من الرضاعة وغيرهم ممن يشرب
القهوة المحلاة بالسكر لاختمارو في معدم فاذا حلي اللبن والقهوة وغيرها بالسكرين لم يحدث
شيء من ذلك لان السكرين لا يحمض ولا يتخمر كالسكر. والمرضون لمرض البول السكري
يعتمدون عليه في تحمية طعامهم

ويستخرج من القطنان انواع كثيرة من العطور كالسك الصناعي. ويمن الرطل منه نحو ٥٠
جنيهاً وعطر الخزام والفانلا وما اشبه

وخلاصة القول ان هذه المادة السوداء اللزجة اكثر مواد الكون اختلاطاً في تركيبها
وتعددت في عناصرها واجسامنا وجميع ما يتعلق بها من ما كل وملبس. مشابهة للقطنان ومشتقاته

تاريخ محمد علي باشا

حال النظر قبل توليه

وعندنا في الجزء الماضي ان نسط الكلام على حال القطر المصري قبلما تولاه محمد علي باشا
وفي مدة ولايته وبعدما اظهر المآله فيه من المآثر وانجازا لذلك نقول
انتهى احتلال الفرنسيين للقطر المصري بعد ان اقاموا فيه نحو ثلاث سنوات فقد
وصلت طلائع جيشهم الى الاسكندرية في اول يوليو سنة ١٧٩٨ واقبلوا منها في ١٨
سبتمبر سنة ١٨٠١ وكانت تلك السنوات الثلاث سنوات حروب وثورات ومع ذلك استتب
لعائشهم ان يبحثوا في جغرافية البلاد وآثارها وزراعتها وصناعتها ويؤلفوا في ذلك من
الكتب ما لم يؤلف مثله لا قبله ولا بعده واستتب لجنودهم ان يضعفوا شوكة المالك حتى
صار اذلالهم امراً ميسوراً ولرجال الادارة منهم ان ينظروا حال البلاد ويحجروا فيها من
العدل ما كان اجراؤه ممكناً مع شدة التجريص عليهم من كل جهة

قال الجبرتي عند ذكره محاكمة الذي قتل الجنرال كلاير انه ذكرها على ركاكة لغتها
لانها "نضمن خبر المرافعة وكيفية المحاكمة وما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء
الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين وكيف تجارى على كبيرهم ويمسويهم رجل
افاتي اهوج وشدرة وقبضوا عليه وفرروه ولم يجالوا بقتله وقتل من اخبر عنهم بمجرد الاقرار

بعد ان عبروا عليه ووجدوا معآ آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم واميرهم بل رتبوا محكمة ومحكمة واحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستنفاء مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم احضروا من اخبر عنهم وسألوه على انفرادهم ومجتمعين ثم تقدموا الحكم فيهم بما اقتضاه الحكم واطلقوا مصطفى افندي البرصلي الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من المسطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من افعال اوباش السكار الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم يجاهدون وقتلهم الانس وتجارهم على حدم البنية الانسانية بمجرد شهراتهم الحيوانية ثم سبلى عليك بعضه بعد

وقال بعد ذلك واصفاً الديوان الذي رتبته الجنرال منو لادارة الاحكام "فيه (اي في جمادى الثانية سنة ١٢١٥) شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الاول من تسعة معتمدين لا غير وليس فيهم قبلي ولا وجاقلي ولا شامي وليس فيه خصوصي ولا عمومي بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء وهم الشيخ الشرفاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السري والشيخ خليل البكري والسيد علي الرشيد نسيب ساري عسكر والشيخ الثيوي والقاضي الشيخ اسمعيل الزرقاني وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسمعيل الخشاب والشيخ علي كاتب عربي وقاسم افندي كاتب رومي وترجمان كبير القس رفائيل وترجمان صغير الياس نجر الشامي والوكيل فوريه ويقال له مدير سياسة الاحكام الشرعية . وعينوا عشر جلسات في كل شهر واعدا للترجمين والكتبة الفرنسية مكاناً خاصاً يجلسون فيه في غير وقت الديوان لترجمة اوراق الوقائع وغيرها وجعلوا لها خزائن للسجلات ونحوها ايضاً بجانبها داراً لتذويها اليها وشرعوا في تعميمها وتأنيقها وسموها بمحكمة التجير واخذوا يربون انفراداً من تجار المسلمين والنصارى يجلسون فيها للنظر في القضايا المتعلقة بقوانين التجار والكبير على ذلك كله فوريه . . . ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة اربعة عشر الفضة في كل شهر وللقاضي والمقيد والكاتب العربي والمترجمين وباقي الخدم مقادير متفاوتة تكفيهم وتضميمهم عن الارشاد

وكان الساري عسكر وهو الجنرال منو قد اعتنق الاسلام ويظهر مما كان يخاطب به اهل مصر انه كان يبدل اقصى الجيد لجمعهم يحبون النظام وينظمون احوال البلاد من كل وجه وقد احصى انواليد والوافيات والزيجات وضبط الاملاك " حتى يتسرع للحاكم الشرعي الحكم بالعدل والانصاف وينقطع اخلف والخصام بين الورثة " . وهذه المقترحة منقولة عن كتاب طويل كتب به الى مشايخ الديوان رداً على تهنتهم له ببولود رزق بدم من زوجته ابنة الرشيد

وقد استهلهُ بالجملة والشهادة فقال "بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله من عبد الله جاك منو ساري عسكرا مير عام جيوش دولة جمهور الفرنسية بالشرق ومظاهر حكومتها بير مصر حالاً الى حضرة المشايخ والعلماء اهالي الأديوان السيف بمصر القاهرة حالاً ادام الله فضائلهم" وختمه بقوله "انا نشكر فضلكم على ما اظهرتم لنا تهنته بولادة ولدسي السيد سليمان مراد جاك منو نطلب من الله سبحانه وتعالى واسأله كذلك بجوار رسوله سيد المرسلين ان يجود عليّ بزماناً مديداً وان يكون للمعدل محباً وللاستقامة والحق مكرماً وفي وعد صادقاً وان لا يكون من اهل الطمع"

وسواء كان الجنرال منو مخلصاً في اسلامه او غير مخلص وسواء عبر هذا الكتاب عمماً يخالج ضميره حقيقة او عما يخالج ضمير كاتبه له فلا شبهة في ان تكرير النصيح والارشاد على الصورة التي فيد يوثق في النفوس الا اذا كانت خالية من جرائم الفضائل ولم يكن الخبري متشيعاً للفرنسيين ولا مفضياً عن زلاتهم بل ذكرها واسهب فيها فخطأ هدمهم لكثير من المنازل لكي ينوا من اتقاضها الاسوار والامتحكومات ويتسع معهم مجال الهجوم والدفاع وتفرغهم الناس بالاموال الباهظة لدفع النفقات الكثيرة التي كانت لازمة لم اغراءهم النساء المصريات بالجري على عادات نسائهم قال "انه لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يشون في الشوارع مع نسائهم وهن حامرات الوجوه لا يبات الستانات والمناديل الحوير الملوثة ويسدلن على متاكبين الطرح الكشمير والزر كسات المصبوغة ويركبن الخيول والحوير ويسقنها سوقاً غنيفاً مع الضحك والفرجة فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفراش فتداخلن معهم خلصوعهم للنساء وبذل الاموال لهن وكان ذلك التداخل اولاً مع بعض احشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا في اهلها واخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزبون بزوي نسائهم واجروهن على طريقتهم في كامل الاحوال ففزع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية... وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهن رغبة في سلطنتهم ونوالم يظهر حال العقيد الاسلام وينطق بالشهادتين وصار مع حكام الاخطاط منهم النساء المسلمات متربات بزبيهم ومشين معهم في الاخطاط للنظر في امور الرعية والاحكام العادية والامر والنهي ونشي المرأة بنفسها او معها بعض اترابها واضيافها وامامها القواسة والخدم وبأيديهم العتي يفرجون لهن الناس مثل ما يير الحاكم ويأمرن في الاحكام

"ولما اوفى الليل اذرعة ودخل الماء في الخليج وجرت في السفن وقع عند ذلك من

تبرج النساء واخلاقهن بالفرنيس ومصاحبتهن في المراكب والرقص والثناء والشرب في النهار والليل وعلين الملابس الفاخرة والخلى والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات انطرب
 وخلاصة القول ان الجبرتي لم يترك للفرنسيين شائبة الا ذكرها مصوراً ايها بالصورة
 التي رآها فيها نكتة كان نقاداً منصفاً على حسب ما كان يراهى له فشهد لهم بعدل الاحكام
 كما شهد على غيرهم بالجور والفسق وعلى كثيرين من اهالي مصر بانهم لم ينفكوا عن مكاتبه
 اعداء الفرنسيين وتحين الفرص للايقاع بهم او اخذهم الامور بالهزل والسخافة

ويظهر لنا انه نولا انكثرا فكانت مصر الآن بلداً فرنسويًا كسائر الولايات الفرنسية
 لكن انكثرا عاوت الباب العالي على استرجاع الديار المصرية ثم تركتها له لا لانها كانت
 تعجز عن البقاء فيها كما بقيت في الهند ولا لانها كانت تعلم ان العثمانيين اصلح لادارتها من
 الفرنسيين بل لانها كانت تظن ان مصلحتها تقتضي بقاء هذه الديار جزءاً من السلطنة العثمانية .
 وقد انفتت على استرجاعها اموالاً طائلة فان ما انفقته الهند وحدها في هذا السبيل بلغ
 ثلاثة ملايين من الجنيهات وجاءت الجنود العثمانية بقيادة يوسف باشا الصدر الاعظم لمعاونة
 الانكليز على ذلك وكانت مؤلفة من الانكشارية والانوود ومحمد علي في قيادة فرقة من الانوود
 ولما رأى الفرنسيون ان لا قبل لهم بمناوأة الانكليز والعمانيين بعد ان قطع الانكليز
 سد ابي قير وحصروا الجزائر منو في الاسكندرية ومنعوه من نجدة جنود القاهرة صاحبهم على
 الخروج من القاهرة بكل ما لهم من مال ومتاع وتعهد الانكليز ان يقدموا لهم الركائب برًا
 والمراكب بحراً لا يصلهم الى فرنسا . ولما خرجت الجنود الفرنسية من القاهرة عجب الانكليز
 من كثرة عددهم واستعظموا الفوز الذين فازوا به بأخذ المدينة من غير قتال . وتم عقد
 الصلح في القاهرة في ٢٣ يونيو سنة ١٨٠١ واشترط فيه ان يخرج الفرنسيون منها في مدة
 خمسين يوماً ويضوا الى رشيد ويقلموا من هناك الى بلادهم بسفن يعدها لهم الانكليز ويجوز
 لكل احد من اهل مصر ومن سكانها ان يذهب معهم ويقدم لهم الانكليز كل ما يحتاجون
 اليه من نفقة ومؤونة وجمال ومراكب . ويبقى جرحهم في مصر ليعالجوا فيها الى ان يشفوا
 وينفق عليهم العثمانيون

ولم يكد الفرنسيون يخرجون من القاهرة حتى حلت فيها الفوضى وفعل العثمانيون الشركات .
 ذكر الجبرتي " ان شخصاً من السكر شرب شربة من عرق السوس ولم يدفع ثمنها فكلم صاحبها
 القلق الانكشاري فاحضره وامره بدفع ثمنها ونهره واراد ضربه فخرج العسكري الطبخجة
 وضرب القلق فقتله ودرب الى حارة الجوانية ودخل الدار وامتع فيها وصار يضرب بالرصاص

على كل من قصده فقتل خمسة ومرة شخصان من الارنوود بتلك الخطة فقتلها الانكشارية
لكون الصريح ارنوودي من جنسها فلما اعيام امره حرقوا عليه الدار فخرج هارباً فقبضوا عليه
وقتلوه وقتل تسعة اشخاص في شربة عرق سوس. ووقع في ذلك اليوم ايضاً ان شخصين من
القلبيونجية دخلا دار رجل نصراني فاخذوا منها بقتين من الثياب وخرجوا فوجدوا شخصين
مارين من الفلاحين تسخرهما في حمل البقتين فخرج النصراني وشكا امره الى القلق فامر
بالقبض على المسكرين فقتلوا وهربا بعد ان جرح احدهما فاخذوا الشخصين المسخرين وقطعوا
رأسهما ظناً وعدواناً وذلك من مبادئ قبايحهم. وكثير اشتغال العسكر بالبيع والشراء
وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوقة وارباب الحوانيت دراهم بأخذونها منهم
في كل يوم ويأخذون من الخبايز الخبز من غير ثمن وكذلك يشربون القهوة من القهاوي
ويحكرون ما يريدون من الاصناف ويبعونها باعلى الاثمان ولا يسري عليهم حكم الخسب
وكذلك تسلطوا على الناس بالاذية لادنى سب وتعرضوا للسكان في منازلهم فتاتي منهم
الطائفة ويدخلون الدار ويأمرن اهليها بالخروج منها ليسكنوها فان لاطفهم الساكن واعطاهم
داره تركوه وان عاندهم سيوه وضربوه ولو عظيماً وان شكا الى كبيرهم قبول بالبيك ويقال
له ألا تصفون لآخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وانتدوكم من الكفار. والقلقات
والانكشارية الذين دخلوا حارات النصارى كلنوم اضعاف ما كلفوا به المسلمين. ويأتي الشخص
من المسكر ويجلس على بعض الحوانيت ثم يقوم فيدعي ضياع كيسه او سقط شيء منه
ويدلون الذنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدرهم الفضة قهراً وانتشروا في القرى
والبلدان فعموا كل قبيح فنذهب الجماعة منهم الى القرية ويدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية
ويومونهم انهم حضروا اليهم بأوامر اما لرفع الظلم عنهم او ما يتدعونه من الكلام المزور
ويطلبون حتى طربقهم مبلغاً عظيماً ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم بالكلف الفاحشة
ويحفظون الاغنام ويهجمون على النساء وغير ذلك مما لا يحيط به العلم. او يركب العسكري حمار
المكاري قهراً ويخرج به الى جبهة الغلاء فيقتل المكاري ويذهب بالحمار فيبعه في ساحة الحبر
وتسلطوا على الناس بالسب والشتم وجعلوهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك وتمنى أكثر الناس
وخصوصاً الفلاحين احكام الفرنسية " انتهى باختصار

وأكثر الجبرتي من مثل هذا الكلام والظاهر ان طابع كتابه حذف منه اشياء كثيرة من هذا
القبيل. ومع ذلك رأى هؤلاء الجنود المؤمنون واهالي مصر عموماً ان الفرنسيين الكفار
قد نجسوا ارض مصر فارادوا ان يظهروها من آثارهم " فاحضروا ابنة الشيخ البكري وكانت

من تبرج مع الفرنسيين وسأفوها عما كانت تفعله فتالت اني تبت عن ذلك فقالوا نوالها ما تقول انت فقال اقول اني بري عنها فكسروا رقبتي " واحضروا امرأة تسمى هوى كانت تزوجت رجلاً اسمه تقولا القبطان ثم هربت وعادت الى زوجها الاول فاستاذن الوزير في قتلها فاذن له تخفيها في ذلك اليوم ومعها جاريتها البيضاء ام ولد ووقنوا ايضاً امرأتين من اشباههن ومن هذا التيل ان الوزير كان يذهب الى الجامع ويحضر الجمعة وهذان العنلان اي قتل بعض النساء والذهاب الى الجامع كنيا لتطهير البلاد من الكفار. اما اعمال الانكشارية وغيرهم من الجنود العثمانية واطلاق العنان للماليك في الصعيد وسلب اموال العباد بما لا يحصى من الاساليب كل ذلك مما يُفتنر لان الجنود مؤمنون جاؤوا لاقاد اخوانهم من انكفار

ثم ارسلت الجنود العثمانية الى الصعيد للايقاع بالماليك واستئصال شأفتهم لكن اهالي البلاد نفروا منهم على ما قاله الجبرتي " لما رأوه فيهم من الظلم والفجور والعنف باهل الريف والمسف بهم وظلمهم الكلف الشاقة والقتل والحرق وذلك هو السبب الداعي لنفور اهل الريف منهم وانضمامهم الى المصرية " اي الماليك

ولما ضاق الامر بالماليك كتبوا الى والي مصر ما ملخصه نقلاً عن الجبرتي " ان الارض ضاقت عليهم واضطرم الحال والضييق وفراق الوطن الى ما كان منهم وانهم في ضاعة الله والسلطان ولم يقع منهم ما يوجب ابعادهم وطردهم وقتلهم فانهم خدسوا وجاهدوا وقتلوا مع العثمانية وابلوا بالفرنسوية تجوزوا بصد الجزاء ولا يهون بالنفس اللذ والاقبال على الموت فاما ان تعطونا جبهة تتعش فيها او ترسلوا لنا اهلنا وعيانتنا وتشهروا لنا مراكب على ساحل القصير نساخر فيها الى جبهة الحجاز او تعينوا لنا جبهة نقيم فيها نحو خمسة اشهر مسافة ما يخاطب الدولة في امرنا ويرجع اليها الجواب ونعمل بمقتضى ذلك فان لم يجيبونا لشيء من ذلك فيكون ذنب الخلائق في رقابكم لا رقابتنا "

فاجيبوا باعطاء الامان لجميع الامراء المصرية وانهم يحضرون الى مصر ويقبضون فيها ولم ما يرضيهم ما عدا ابراهيم بك الانلي وعثمان بك البرديسي و ابا دياب فانهم مطلوبون الى حضرة السلطان ليتوجهوا اليه فيعطيه مناصب وولايات كما يحبون وان لم يرضوا فليأخذوا اقطاع اسنا ويقبضوا فيه ولما وصلهم هذا الجواب وقرأوه في ديوانهم وعساكرهم مصطفة حولهم يتنادقها تكلم الانلي وقال للرسل " اما قولكم نذهب الى اسلامبول وتقابل السلطان بعم علينا فهذا مما لا يمكن وان كان مراده ان يتم علينا فاننا في بلادنا وانعامنا لا يتقيد بحضورنا بين يدي واما بقية اخواننا فهم باختيار ان شافوا اقاموا معنا والأذهبوا وكل انسان امير نفسه واما كون

حضرة الباشا بعيننا اقطاع اسنة فلا يكفينا هذا وانما يكفينا من اسبوط الى آخر الصعيد
وتقوم بدفع خواجه فان لم يرضوا بذلك فان الارض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا
وانا كل من رزق الله ما يكفينا ومن اتى الينا حاربنا حتى يكون من امرنا ما يكون

وكانت المصيبة بالماليك مزدوجة على اهل القطر فيهم يظنون الناس حيث حلوا ويسلمون
ما عندهم والجنود التي ترسل لخارجيتهم تفعل فعلهم او تزيد حتى يبلغ انين الاهالي عنان
السماء وحاول الانكليز اتقادهم من الجور مراراً ولكن ليس جملة

هذا ولتعد الى ذكر الحوادث التاريخية المبسة مع ما يتصل بها من الامور الاجتماعية فنقول:
ان الجنرال منو حاصر في الاسكندرية ولم يلم وقتما ساءت القاهرة وتكثرت اضطراباً اخيراً الى
التسليم فسلم في ٢٤ اغسطس سنة ١٨٠١ واقلعت الجنود الفرنسية من الاسكندرية في
١٨ سبتمبر بكل ما لم من اتباع ومتاع وبلغ عددهم احد عشر الفا عدا الذين اقلعوا من رشيد
من حامية القاهرة وقد اتفق الانكليز النفقات الطائلة في هذه الحملة على غير جدوى لان
السرهنري سمث كان قد عقد معاهدة مع الفرنسيين في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ على ان
يخرجوا من القطر المصري كما خرجوا منه الآن وهي المعروفة بمعاهدة العريش ولكن الحكومة
الانكليزية ابت التصديق عليها ثم عادت الى التصديق على مثلها تماماً بعد ما مرّ عشرون شهراً
وخسرت الملايين الكثيرة من اموالها والالوف من رجالها وقائد الحملة كلها وهو الجنرال
ايركومي الذي قتل امام الاسكندرية

وخرج الفرنسيون من الديار المصرية كما تقدم ثم تبعهم الانكليز وبقيت البلاد في يد
المغنايين وكانت الدولة قد ولت عليها والياً اسمه محمد باشا خسرو فوصلها في اوائل سنة ١٨٠٢
ودخل القاهرة في ١٧ رمضان سنة ١٢١٦ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ ولم يفعل من الافعال
التي ترضي الاهالي الا حضوره الجمعة وزيارته الاضرحه واكثاره من الياس الفراء للذين
يريد اصطناعهم او تملقهم اما سيره في سياسة البلاد فيدل على جهل مطبق وميل الى ارهاق
الناس بكل واسطة ممكنة ولو كان نعمة منها قليلاً مثال ذلك اشراؤه اهالي العاصمة برفع
التراب والانتقاض من امام منزله قال الجبرتي "واحضروا قوائم ارباب الحرف التي كتبت ايام
الفرنيس ونهبوا عليهم بالحضور فاول ما بدأوا بالنصارى الاقباط فحضروا يتقدمهم رؤسائهم
جرجس الجوهري وواصف وفتوس فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفي ثاني يوم حضر منهم طائفة
كذلك ولما انقضت طوائف الاقباط حضر النصارى التسوام والاروام ثم طلبوا ارباب الحرف
من المسلمين وبعد ان يفرحوا من العمل ويؤذن لهم في الذهاب يلزمونهم بدرام يقبضها مبتار

باشا برسم التمشيش للضباين والزمارين واذا حضرت طائفة ولم تقدم بين يديها هدية او جمالة
ظنوا عيبا للمدة واتعبوها واستحوها . فاجتمع على الناس عشرة اشياء من ازالة وهي السخرة
والعونة وحرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقصيع الثياب ودفع الدرهم وشماتة الاعداء وتعطيل
الماش واجرة الحمام (للتشريف من الوسخ)

وكان يحاول احيانا التكفير عن ذنوبه بزيارة جامع او صريح وتفريق شيء من المال
او الخسطة على ظنية العلم الا ان الجبرتي لم يفتقر بذلك بل قال في
وانها خطرات من وساوس يعطي ويتبع لا يجلا ولا كرما

واخيرا قام الارنوود عليه باغراء محمد علي وحصره في داره وحرقها عليه وكانت اخر
دور مصر كما سيجي في تخرج منها وهرب بماشيته وعزوتيه من الجند بعد ان اقام في الولاية سنة
وثلاثة اشهر وواحد وعشرين يوما وكان على ما قال الجبرتي "سي التدبير لا يحسن التصرف
يجب سفك الدماء ولا يتروى في ذلك ولا يضع شيئا في محله يتكرم على من لا يستحق ويحل
على من يستحق وفي آخر مدته داخله الفرور وطاوع قرناء السوء المحدثين به والتفت الى المغالم
والتردد على الناس فانقذ الله منه عباده وسلط عليه جنده فخرج مرغوما مقهورا على هذه
الصورة ولم يزل في سبوره الى ان نزل بقلوب بعد الغروب فعشاه الشواربي شيخ قلوب ثم
سار ليلا الى دجوة فانزل اخرم والاتقال في ثلاث مراكب وسار هو الى جبة بنها ومنها الى
دمياط وغالب جماعته تخلفوا عنه بمصر وكذلك استخذوا وديوان انندي والغازندار والسحدر
وفي ١٤ محرم سنة ١٣١٨ اجتمع المشايخ والقاضي ورؤساء الجند بايعاز محمد علي وولوا عليهم
رجلا من الارنوود اسمه ظاهر باشا اوجعلوه قائما الى ان تأتت الولاية من الاستانة لكن
الانكشارية تقموا عليه لانه مال الى الارنوود وهجموا عليه وقتلوه بعد ان قام في الولاية ستة
وعشرين يوما . قال الجبرتي "ولو طال عمره اكثر من ذلك لاهلك الخرت والنسل وكان به
هوس وانسلا ب وميل للسلبين والمجاديب والدراريش وعمل له خلوة بالشيخونية كان بيت
فيها كثيرا وبصعد مع الشيخ عبد الله انكردي الى السطح في الليل ويذكره " .

وكان احمد باشا ولي المدينة المنورة في مصر فرغب الناس في توليته عليهم فعارضهم
محمد علي في ذلك فجمع احمد باشا المشايخ وطلب منهم ان يجمعوا الرعية ويأمروهم بالخروج
على الارنوود وقتلهم وكان محمد علي والارنوود رجاله في القلعة فجمعوا بطقون المدافع على بيت
احمد باشا فاخذ امره في الانحلال وكان المايك قد حضروا الى اسم مصر والظاهر انهم
مالوا والارنوود على الفتك بالانكشارية وسكن من ناوهم فارسوا الى احمد باشا ليخرج من

المدينة فركه من كان معه من اعيان العثمانية وذهبوا الى محمد علي والتجأوا اليه وخرج احمد باشا في حالة شنيعة واتباعه مشاة بين يديه وعندما خرج من البيت دخله الارنوود ونهبوا جميع ما فيه وكانت مدة ولايته يوماً وليلة . والتجأ الدقار دار وكتفد ابك الى محمد علي فاذن لها في الذهاب الى يتيمها ثم هجم الارنوود عليها وقتلها

وولت الدولة وزيراً اسمه علي باشا الطرابلسي فاتي الى الاسكندرية وكتب الى امراء الممالك يعلمهم بوصولهم ويحبرهم انه وُفي عن الاقطار المصرية من الاسكندرية الى اصوان وقال لهم في آخر كتابه كان الواجب ان لا تدخلوا المدينة (القاهرة) الا باذن من الدولة فان سيف السلطنة طويل وربما استعان السلطان عليكم ببعض المخالفين الذين لا طاقة لهم بهم . فكثروا اليه جواباً قالوا فيد . " انه لما كان محمد باشا متولياً بذلنا الجهد في استرحامه وهو لا يزيد معنا الا قسوة ولا يسمح لنا بالاقامة في القطر المصري جملة وجرّد علينا التجاريد من كل جبهة وكان الله ينصرنا عليه في كل مرة الى ان حصل بينه وبين عساكرهم وحشة بسبب علوفاتهم فقاموا عليه وحاربوه واخرجوه من مصر بعمونة طاهر باشا ثم قامت الاكثارية على طاهر باشا وقتلته ظناً وقامت العساكر بعضها على بعض وكنا حضرنا الى جهة الجيزة باستدعاء طاهر باشا فلما قُتل بقيت المدينة رعية من غير راع وخافت الرعية من جور العساكر وتعميمهم ففرض الينا المشايخ والعلماء واخيارية الرجايلية واستفاثوا بنا فارسلنا من عندنا من ضبط العساكر وامن المدينة والرعية . واما محمد باشا فانه نزل الى دمياط وظلم البلاد والعباد وفرّد عليهم الفرّد الشاقة فترجه عثمان بك البرديسي لتأمين اهالي القرى الى ان وصل الى ظاهر دمياط فاقام بهم معه خارج المدينة فما شعر الا ومحمد باشا صدمهم ليلاً وحاربهم فخاربه ونصرهم الله عليه فانهمزمت عساكره وقبض عليه . وهو الآن عندنا في الاعزاز والاكرام ونحن الآن على ذلك حتى يا تينا العنو . واما قولكم اننا نخرج من مصر فهذا لا يمكن ولا نطاولنا جماعتنا وعساكرنا على الخروج من اوطانهم واما قواكم ان حضرة السلطان يستعين علينا ببعض المخالفين فاننا لا نستعين الا بالله وقد ارسلنا عرضحال نطلب العفو وترجي الرضا ونحن منتظرون الجواب "

وتلك علي باشا عن الحضور الى مصر وارسل الى الممالك يخبرهم برضا الدولة عنهم بشفاعة الصدر الاعظم يوسف باشا وشفاعتهم هو وان يقيموا بارض مصر ابن شادوا وقطع لكل امير منهم خمسة عشر كيساً فسروا بذلك ولكنهم عرفوا بعد حين انه عازم على العذر بهم فنادعوه هم والارنوود حتى جاء مصر واخبروه بما اطلعوا عليه من امره وطردهوه وقتلوه في اثناء الطريق

هو وحاشيته وكان يحسن كفته معه فتأدى واحداً قبل ان اسلم الروح وقال له بعرضك يا فلان ان معي كفتة داخل اخرج فكنتي به وادفني ولا تركني مرمياً . قال الجبرتي وكان ذلك نتيجة سوء سيرته وحبث ضميره فلقد بلغنا انه قال لعكرو ان بلغت مرادي من الامراء المصريين (المماليك) وظفرت بالارنؤود اجحت لكم المدينة والرعية ثلاثة ايام تفعلون بها ما شئتم والدليل على ذلك ما فعله بالاسكندرية مدة اقامته بها من الجور والظلم ومصادرات الناس في اموالهم وبنائهم وتسلط عساكره عليهم بالجور والغلط والنسق وترذيلهم لاهل العلم واهانتهم لهم حتى انه كان يسمي الشيخ محمد المسيري الذي هو اجل مذکور في النثر بالمزور اذا دخل عليه مع امثاله

ولا ندري هل ما رواه الجبرتي عنه كان صحيحاً او متخلفاً عليه فقد قال بعيد ذلك " ان محمد علي حرس العساكر على محمد باشا خسرو وازال دولته ووقع به جموعة طاهر باشا والارنؤود ثم استعان بالأتراك على طاهر باشا حتى اوقع به ايضاً وظهر امر احمد باشا وعرف (اي محمد علي) انه اذا تم له الامر وبما امر الأتراك لا يتقون عليه فاجله وازاله جموعة الامراء المصرية (المماليك) واستقر معهم حتى اوقع بالاشترار منهم بالدقردار وانكفخدا ثم حاربوا محمد باشا بدباط واخذوه اميراً واحالوا على علي باشا الطرابلسي واقعوه في تخيم وقتلوه كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصاً للبرديسي (من امراء المماليك) فانه تأخى معه وجرح كل منهما نفسه وطمس من دم الآخر واعتز به البرديسي وصدفه واصطفاه وفعل بموته ما فعل بالالائي الكبير واتباعه وشردهم ونص جناحيه يده

فان محمد بك الالائي الكبير وهو اعظم امراء المماليك ذهب الى البلاد الانكليزية فآكرمه الانكليز وردوه بالهدايا والحنف انكثيرة فخذة سائر المماليك واشتمروا له السوء فاضطر ان يهرب من وجههم في البلاد ويختفي في بيوع العرب وسلبوا كل ما جاء به من البلاد الانكليزية والظاهر من كلام الجبرتي ان المماليك فعلوا ذلك باغراء محمد علي

ثم ان محمد علي انقلب على المماليك واطلق محمد باشا خسرو الوالي الاسبق وانضم اليه وطرد المماليك من القاهرة وضواحيها بعد ان نكل بهم ونهب عسكره اموالهم وبيوتهم وامتنعهم وسبوا حريمهم وسرايرهم وجوارهم واتصل اذاهم بالاهاالي فغربوا بيوتاً كثيرة ونهبوا ما كان فيها ولم يظن الامر على محمد باشا خسرو حتى خذل وجاء احمد باشا خورشيد من الاسكندرية وقبول بالترحاب وجاءته بشارة في ٧ محرم سنة ١٢١٩ بتقليد ولاية الديار المصرية ونصره محمد علي في اول الامر ثم مضى الى الوجد القبلي لمنازلة المماليك فاستدعى احمد باشا جنوداً امن

الدلالة لكي يعينوه على محمد علي وجنوده والارز ودكاته أوجس منه ومنيه سر لنا وصل الدلالة الى مصر عاد محمد علي اليها حالاً فاسره احمد باشا بالعودة الى الصعيد لقتال المماليك فقال انه انما اتى في طلب العلاف

وجاء حينئذ فاصد من اسلابول وعلى يدو تقليد محمد علي بولاية جدة فابى محمد علي الصعود الى القلعة ووقع الاتفاق على ان احمد باشا ينزل الى بيت سعيد آغا ويحلج عليه هناك خلعة ولاية جدة فلما حضر وحضر محمد علي ونقلد ولاية جدة وخرج يريد الركوب ثار عليه الجنود وطلبوا علائقهم فقال لم هوذا الباشا عندكم وركب وذهب الى داره بالا زبكية وصار يثار الذهب في طول الطريق فغضب الجنود الى احمد باشا ومنعوه من الركوب فوعدهم خيراً وطلب الاموال الطائلة من الاهالي وارسل الدلالة الى قلوب لينبئها فركب المشايخ الى بيت القاضي واجتمع معهم كثيرون من الرؤساء والقطاء وذهبوا الى محمد علي وقالوا له اننا لانريد احمد باشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية فقال ومن تريدون واليا قالوا لا نرضى الا بك فتكون والياً علينا بشروطنا لما توسناه فيك من العدالة والخير فامتنع اولاً ثم رضى واحضروا له كركاً وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرفاوي فالبساه ونادوا به والياً على الديار المصرية وكان ذلك عصر الاثنين في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ للهجرة الموافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥

ولم يستتب الامر لمحمد علي حالاً لان انصار احمد باشا كانوا كثيراً وكانت القلعة في يدو ووقع الجدل بين بعض انصاره وبين الذين ولوا محمد علي فقالوا لم كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فقالوا لم ان اولى الامر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان ان اهل البلد يعزلون الولاة حتى اخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويحلونه والظاهر ان الباب العالي رضى بما فعله المصريون فبعث بفرمان التولية الى محمد علي من ٢٠ ربيع الاول ولقب فيه بمحمد علي باشا والي جدة سابقاً ووالي بصر حالاً وأمر احمد باشا بالتزول الى الاسكندرية حتى ياتي امر بالتوجه الى بعض الولايات

ولا تكاد تجد في الجبرقي ولا في غيره من التواريخ العربية سوى ذكر الحروب والمظالم والمظالم لكن يؤخذ مما يبين ذلك ما يدل على ان الناس لم يتركوا زرعهم وعلى ان التجارة كانت رائجة بعض الرواج ولا سيما مع الشرق الاقصى ولولا الحروب والثورات لثال القطر المصري من ذلك ثروة وافرة جداً فقد نهب العرب مرة فاقلة التجار الواصلة من السويس

وكان فيها أربعة آلاف رجل حاملة من البن والبهار والقماش . وتقدمي احمد باشا مرة في دار السيد احمد المحروقي وجلس عنده نحو ساعتين ثم ركب وصعد الى القلعة فارسل المحروقي خلفه هدية فيها بقع قماش هندي وتفاصيل ومصوغات مجوهره وشهداتان فضة وذهب وتماثيل وخيول له ونكبار اتباعه .

ويظهر مما كان يذكر عرضاً عن الضائع المنهوبة والمسالمة ان التجارة كانت متصلة مع الصين والهند والصين والبلاد الاوربية على قلة الامن وصعوبة المواصلات وكذلك الصناعة لم تكن معدومة ولا سيما صناعة البناء والنقش كما يظهر من وصف بيت الالفي الذي حرق لما كان فيه خسرو باشا فقد قيل انه كان في كواه الواح الزجاج البلور الكبار التي يساوي الواحد منها خمسمائة درهم اي نحو خمسة عشر جنيهاً وكان مفروشاً كله بالبط الرومية والفرش الفاخر وفيه الستائر والموائد المزركشة وطاولات المراتب كلها مقصبات هذا وسياً في الكلام على ما اجراه محمد علي في هذا القطر مدة ولايته

هل يسود السلام

لم تمر بالانسان حقبة من التاريخ الا سمعنا له بسعي في ابطال الحرب وتعزيز السلم لم يكن يطول بسعيه المطال حتى كان يورد منه بصفقة الخاسر إما لأن الحرب سنة طبيعية لا يمكن ابطالها ولا تغييرها واما لأن الشروط والقيود التي يمكن ابطال الحرب عندها لم تتوفر في تلك المساعي واما لانه لم يأن الاوان لتأييد ملك السلام . وآخر ما اتاه الانسان من تلك المساعي واعظمه سعي قيصر الروس منذ سبع سنوات في عقد مؤتمر يقرر السلام ويوجب على الدول المشتركة فيه ابطال المعدات الحربية وفصل كل خلاف بالوسائل السلمية او التحكيم . فعقد المؤتمر وقرر ما قرر مما أمسى مضفة سيف الافواه حتى سمي بعضهم السلام الذي نوره بالسلام المسلح استهزاء . وكأنه قد ندر لابن آدم الشقاء والبلاد فلنكي لا يجرأ فيما بعد على السعي في منع الحروب ساق شيطانها فيصر الروس نفسه الى غارها فلي مكرهاً او مختاراً وحكم الحسام بدل الكلام فكان من امره مع اليابان ما كان

وليس يخاف انه ان كان ابطال الحروب بسوراً فالزمان الحاضر ليس زمان البحث في ذلك اذ روسيا واليابان في حرب عوان والدول الاخرى واقفة بالمرصاد لها لتعلم العظمت والمعبر من حربهما . ولكن "وفي الساعة الظلماء ينقذ البدر" فان البحث دائر الآن على عقد